



خطبة صلاة الجمعة 2025/1/3 للشيخ الطيب محمد خير الشعال, في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(سنة الله تعالى في التمكين لعباده)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبي اجتبا، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أما بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أُوْاهِمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: 55-57].

عنوان خطبة اليوم: (سنة الله تعالى في التمكين لعباده)

أيها الإخوة:

بعد فضل الله تعالى علينا في التحرير نحتاج إلى الحديث عن التمكين، إذ يخاف بعض الناس من الاضطراب ويتحدث البعض عن القلاقل ويشير آخرون إلى الارتداد، هنا ذهب أبحث عن مثل هذا الحال والقال في القرآن الكريم:

فوجدت أناساً في المدينة المنورة كانوا يترددون في عاقبة أمر المسلمين، يخشون ألا يستقر بالمسلمين المقام بالمدينة حتى يغزوهم المشركون، أو يخرجهم المنافقون حين يجدون الفرصة لذلك كما حكى الله تعالى من قول عبد الله بن أبي: ﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: 8].

هذا بالإضافة إلى تخوف المسلمين كيد أعداءهم من المشركين والمنافقين.

قال أبو العالية: مكث رسول الله بمكة عشر سنين بعد ما أوحى إليه خائفاً هو وأصحابه، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح، فقال رجل: يا رسول الله أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال رسول الله: لا تَعْبُرُونَ (أي لا تمكثون) إلا قليلاً حتى يجلس الرجل منكم في الملاء العظيم محتبياً ليس عليه حديدة».

ثم أنزل الله تعالى عليهم آية في سورة النور فيها السنن الإلهية في الأمان والتمكين والاستخلاف لعباده نحن أحوج ما نكون إليها اليوم لنؤكد العمل بمقدماتها فننال نتائجها.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55].

فالأية وعدٌ من الله تعالى، وهل أحد أنجز لوعده من الله تعالى، وهل أحد أصدق من الله قبيلاً، وأوفى من الله وعداً ووعداً!

وهذا الوعد لمن تحلى بثلاثة أمور: الذين آمنوا أولها، وعملوا الصالحات ثانيها، وعبدوا الله مخلصين له الدين ثالثها.

فمن تمسك بهذا الثلاثة نال ثلاثة من حضرة الله تعالى.

الاستخلاف في الأرض أولها، والتمكين لهم ولدينهم ثانيها، والأمن من الخوف ثالثها.

فمن قدم تلك الثلاثة نال هذه الثلاثة، ومن كفر بأن خالفها وتركها فقد خرج من الوعد إلى الوعيد ومن التمكين إلى التهديد.

فأسباب التمكين في الأرض كما تقول الآية ثلاثة:

أولها: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خير وشره كل من عند الله

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾:

الإيمان الذي يبعث في المؤمن الرغبة للعمل النافع والرغبة من العمل الضار، الإيمان الذي يجعل صاحبه طاهراً لا ينجس؛ طاهر اليد والفم والفرج والبطن واللسان، طاهر العقيدة والشريعة والأخلاق، الإيمان الذي يمد المؤمن بالثبات أمام الفتن وبالصمود في مواجهة الباطل، الإيمان الذي يورث المؤمن سعادة الدنيا والآخرة.

ومن دون الإيمان يغرق الناس في وحل الشهوات والجهالات، ويستعبد القوي الضعيف، ويبطش الغني بالفقير، ويعم الفساد البر والبحر.

وليس أصدق لوصف أثر الإيمان في النفس والمجتمع وأثر الإلحاد والشرك فيهما من قول سيدنا جعفر رضي الله عنه للنجاشي يوم الحبشة حين قال: (أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآبائنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام- فعدد عليه أمور الإسلام-).

ولا ريب أيها الإخوة بوضوح أثر الإيمان وثمراته في التمكين والاستخلاف في الأرض.
فأول سبب للتمكين الإيمان.

وثانيها: العمل الصالح ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

فإذا رسخ الإيمان في القلب وحلت الهداية في النفس نشطت الجوارح إلى الصالحات.
والصالحات من الولاية: العدل في الرعية، والحكم بينهم بالسوية، وبذل الشفقة لهم، ومعاملتهم بالأخلاق الرضية.

والصالحات من الخاصة: الشورى بينهم لجلب المصالح لأهل البلد، والتناصح بينهم لدرء المفاسد عن كل أحد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والصالحات من العامة: السمع والطاعة بالمعروف، والسعي لتحصيل العلم النافع والعمل الصالح، والتعاون على البر والتقوى، وترك الإثم والعدوان.

فمتى اهتم ولاية الأمور وعموم الأمة باتباع ما وضع لهم الشرع تحقق وعد الله إياهم بهذا الوعد الجليل.
ألا فليستعد من عمل صالحاً وكان مؤمناً لخيرات الدنيا والآخرة.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[النحل: 97].

فأول سبب للتمكين الإيمان، وثانيها العمل الصالح.

وثالثها الأخير: عبادة الله بإخلاص دون شرك أو رياء:

﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: 55] قال ابن عاشور في تفسيره: (جملة: يعبدونني حال من ضمائر الغيبة المتقدمة، أي هذا الوعد جرى في حال عبادتهم إياي، وفي هذه الحال إيدان بأن ذلك الوعد جزاء لهم، أي وعدتهم هذا الوعد الشامل لهم والباقي في حلفهم لأنهم يعبدونني عبادة خالصة عن الإشراك، وعبر بالمضارع -يعبدونني- لإفادة استمرارهم على ذلك تعريضا بالمنافقين إذ كانوا يؤمنون ثم ينقلبون).

أخرج البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «كنتُ رَدَفَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرَّحْلِ، قال: «يا معاذُ بنَ جبل»، قلتُ: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذُ بنَ جبل»، قلتُ: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذُ بنَ جبل»، فقلتُ: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حقُّ الله على العباد؟» قال: قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حقَّ الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»، ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذُ بنَ جبل»، قلتُ: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: «حقُّ العباد على الله: ألا يعبدَهم».

والعبادة المرادة العبادة بالمعنى العام أي: إقامة أمر الله ونهيه في كل عمل يعمله الإنسان لعمارة الدنيا أو الآخرة.

أيها الإخوة:

من قدم هذه الثلاثة الإيمان والعمل الصالح وعبادة الله تعالى بإخلاص نال في السنن الإلهية الاستخلاف والتمكين والأمن.

وقد أقسم الله على هذه الثلاثة في الآية بقوله سبحانه (ليستخلفنهم - وليمكنن لهم - وليبدلنهم) فالأفعال الثلاثة جواب قسم مضمرة، والتقدير: وعدهم وأقسم لهم ليستخلفنهم وليمكنن لهم وليبدلنهم. ولئن أكرمنا الله تعالى اليوم بالاستخلاف في أرضنا فإننا مدعوون للاجتهاد بالعمل الصالح وتعزيز الإيمان والاشتغال بعبادة الله وحده؛ لننال التمكين والأمن بإذن الله.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55].

والحمد لله رب العالمين